قبيلة «ميم وصاد»

بقلم الكاتبة السودانية / مها المقداد

«ميم» المانعة؛ لطالما فرضت على نفسها العزلة، ورأت أنَّ الحب هو أحد دروب الهلاك، تمسكت بما قد تربَّت عليه، وتعنتت في تطبيقه، في مجتمع أصبح فيه كل شيء مباح؛ كانت حرة بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ؛ فالحر الحق هو مَن يقيد نفسه بنفسه.

وكأن الحب في بوادره وإرهاصاته الأولى؛ تبخُ براثنه عطرًا أشبه بمُخدر على العاشقين، فلا يدريا كيفما وقعا فيه؛ ويستفيقا منه بعدما يكونا قد غرقا في غيابته بالفعل.

«صاد» الصبور المثابر؛ دنا وحاول التواجد بقربها بشتى الطرق والأساليب، لم يخشَ أن يتعرض للفشل والرفض؛ فهي من وجهة نظره تستحق فعل أي شيء.

وقول حق؛ لقد كان ذا شخصية متفردة؛ فهو يُعد استثناء أيضًا، مقارنةً بكل من حاولوا أن يطأوا قلبها ، وكأنه جاء عوضًا لها عن كل التجارب المؤسفة التي أقحمت في عالمها رغمًا عنها، وأكرهتها في فكرة أن يكون لها شريك في هذه الحياة، لا تدري كيف فوّتت له الكثير من التجاوزات في اقتحام حياتها المؤمّنة ضد أي علاقة أو ارتباط؛ لكن في كل مرة حاولت أن تضع لها وله حدود، كانت تشعر بأن ثقتها فيه تزداد يومًا بعد يوم، تستشعر مصداقيته في كل ملمح من ملامح وجهه الصريح والواضح، كل ذلك على الرغم من أن شخصيتها ترفض الوثوق بأي شخصٍ يتطرق إليها، ويود في

أن يدنو منها بسهولة، وتُقر أنها تضعف كثيرًا أمام جوده وكرمه معها.

تقابلا أول مرة بحجة مقبولة؛ وكأنهما يؤديا مهمة رسمية، ليس للمجتمع أن يعيبها خلقًا، كانا من المفترض أن يتبادلا أوراقًا مهمة فحسب، ومن ثمَّ يرحلا كلا منهما في طريقه، لكنها لم تستطع رفض عزمه وإصراره في أن يجلسا معًا في أحد المطاعم القريبة، اكتفت باحتساء فنجان من القهوة معه فحسب، ولكن لا نبالغ في إخباركم أن احتساء فنجان القهوة هذا، قد استغرق منهما أكثر من ثلاث ساعات، مرَّت هذه السويعات كأنها ثوانٍ، فقد أخذهما الحديث إلى معرفة كل شيء عن بعضهما البعض؛ ولأن الصراحة والتلقائية هما سيِّدا ذلك الحوار؛ فقد أغرما ببعضهما أكثر فأكثر، لم يخب ظنه عن حقيقة شهرتها وأنها بالفعل فتاة متميزة وسط عالم يشوبه جمّ الزيف، وتيقنت أنَّه ليس بشابٍ يتلاعب، كغيره من فارغي العقول التي لطالما عانت منهم ومن طمعهم الزائد فيها؛ منذ أن بدأت معالم أنوثتها تتشكل.

كانت هذه أول مرة؛ تلك المرة المبررة، ولكن ماذا عن ذلك الشوق الذي تزداد نيرانه، ولم تتمكن تلك المرة الأولى من إخماده؛ بل إنها كانت عامل رئيسي في تأججه واشتعاله أكثر مما سبق، لم يتردد في أن يطلب منها أن يتقابلا مرة أخرى، والغريب أنَّها وافقت بكل سهولة ودون أن تعتبر لأي شيء.

التقيا على شاطئ النيل، شعور لم تجربه من قبل؛ لم تكن تعرف لمقابلات العشاق مذاقًا قبل تلك المقابلة، كان التوتر هو المسيطر في بادئ الأمر، ثمَّ بدأت تتلاشى تلك المخاوف، ابتساماتهما لا تفارق وجهيهما على الإطلاق، رغم أن الصمت يسود الأجواء، رائحة الحب تنثر عبيرها عليهما، وكأن كل شيء يحاول أن يساعدهما في التعبير عن حبهما بصوتٍ مسموع - على الأقل لهما، فإذا ببائعة الورد تعرض خدماتها، وإذا به يطلب بدل الوردة

اثنتين، ويهديهما لها، بينما كان وجهه يصب عرقًا، واحمرار وجنتيها يفضح خجلها الشديد؛ ورغم حدة كل تلك الانفعالات وتأثيرها القوي، إلا أنَّ الوقت كان سريعًا ما يُداهمهما؛ فلا يشعران مهما طال بطوله.

كان هناك جو من المرح والضحك يسود تلك المقابلة، أو بمعنى أدق الموعد الغرامي، روح الدعابة تتخلل تلك الأجواء الرومانسية، فقد صرحا خلال هزارهما بكل شيء، فقد تخيلا معًا أنهما ارتبطا بالفعل وتزوجا، زواجًا مدبرًا، فلم يتمكنا من الإقرار بالحب، وكأن الظروف والقدر؛ هما ما سيضطرانهما لأخذ هذا القرار الخطير، وكان التظاهر والتكبر المصطنع، هما الغالبان على حديثهما؛ فبعدما تخيلا زواجهما المدبر هذا، شرد وسرح بخياله؛ بأنه سيأخذها معه إلى الخلاء؛ حيث سيعيدان سويًا تعمير الصحراء الجرداء، سيشيدان معًا خيمتهما؛ وإذا به تتغير تقاسيم وجهه؛ ثم يتحدث بجدية، ويخبرها بأن عليها طاعته طاعة عمياء، ويتوعد لها بأنها إذا خالفته؛ سيقوم بعقابها بالضرب في تلك الصحراء، وسيجري ورائها إذا رغبت في الفرار؛ فإن تمكن من اللحاق والإمساك بها سيربطها في النخلة اليتيمة التي قاما بزراعتها معًا في بداية إقامتهما، ولن يتردد سيقوم بتقييدها وجلدها؛ فلا نجدة لها ولا صاحب، وبعد أن تتأدب سيُعالجها ويطعمها بنفسه؛ فترد عليه وصوت ضحكاتها يدوي في الأرجاء؛ وتخبره بأن ليس عليها هي فقط الحذر، وبأنها من الممكن أن تقبض عليه هي؛ ومن ثمَّ تقيده في تلك النخلة وتجلده؛ فالنصر للأقوى.

ضحكات عارمة تملأ قلبيهما بهجة؛ فما أجمل تلك العلاقات التي تسودها روح الدعابة، تملأها الذكريات الجميلة، تحتفظ بالكثير من لحظات الحب، الفرح، والتلقائية البالغة.

وكالعادة مضى كلا منهما إلى طريقه، فلم تكد تصل إلى منزلها، إلا

وصوت هاتفها ينبهها إلى اتصال منه؛ فهو يرغب في الاطمئنان على وصولها سالمة، ويطول بينهما الحديث هاتفيًا؛ حتى يرفع صوت آذان الفجر، يتصرفا وكأنهما لم يتقابلا ولم يجلسا معًا طوال هذه الساعات.

وفي اليوم الثاني؛ دُعيت للذهاب في رحلة نيلية مع صديقاتها، وقد مررن بنفس المكان؛ حيث قابلته؛ وفجأة تتغير معالم وجهه وكأن قلبها قد سُلب منها في ذلك المكان؛ وبدأت تستفيق من أحلامها، وتهبط على أرض الواقع، خفقات قلبها ازدادت ضراوة وإيلامًا في صدرها، وتتساءل عما إذا سيجمع القدر بينها وبينه في بيت واحد؛ أم سيفرقهما وستبقى الحسرة حليفتها!

فتلك هي علامات الحب العذري والحقيقي، فقد بدءا بإعجاب عقلي ثمَّ تأكد وتوحدت الأفكار، وساد التفاهم، ومن هنا لاح الغرام على علاقتهما؛ ولكن ماذا عن الواقع ومقتضياته، فقد كانت هي من الشرق بينما كان هو من الغرب، ومن الطبيعي أن تكلل هذه العلاقة بالزواج؛ فقلما يجتمع زواجان يتمتعان بهذا القدر من التفاهم والوعي.

كما أنها تحيا في مجتمع لا يرى انجاز أفضل للفتاة من أن تتزوج، وأن تبني أسرة، ولم تكن لتتمرد على مقتضيات ذلك المجتمع، أو لترفض تلك الأعراف؛ فكانت كغيرها من بنات جنسها تطمح إلى تطبيق ذلك أيضًا، وترغب بشدة في بناء أسرة تعوضها عن أسرتها التي فقدتها، كما أنها كفتاة ذات شأن تحيا في مجتمع يمجد في الفتاة أنوثتها لا نجاحاتها العلمية والثقافية؛ فلطالما تعرضت لمغريات ومضايقات، من ذوي العقول والأفئدة المريضة، فقد سئمت ألاعيب الرجال، والمعيشة وسط كل هذا التدني المحيط، ورغبت بشدة في الاستقرار، وبناء بيت سعيد، تكون فيه امرأة لرجلٍ واحد؛ لاسيما أن هذا الرجل موجود بالفعل وقد وقعت في غرامه؛ ولكن ماذا عن ظروفه

المادية، هل هو مستعد للزواج فعلًا؛ أم أنه لا حول به ولا قوة؛ وليس بيديه حيلة كالكثير من شباب مجتمعها.

نعم!... هي الآن تعيش بقلبٍ متحير؛ ما بين قلبِ عاشقٍ يرغب في أن يتمتع بحبه، يرى أنه يستحق أن يحظى بالقليل من السعادة بعد كم ما رآه من شقاء فيما مضى، وبين نذير سوء وانكسار محتمل يهدد قلبها الرقيق يخبره بأن مصيره أن يبقى منفطر إلى آخر العمر، ومن ثمَّ تتحول زهرة شبابها إلى هشيمًا تذروه الرياح...

هلوسة الخوف من فقدان الحبيب هي التي تسيطر؛ تملأ رأسها بالجمل التشاؤمية؛ وتردد بأنَّه استثناء!... وتراجعها؛ بأن إعطاءه فرصة دون غيره خطأ كبير؛ فالمبادئ لا تتجزأ، وتذكرها واقعيًا أنها لم تندم يومًا حينما تمسكت بالعادات والتقاليد والمبادئ؛ فالحقيقة أنها لم تشعر بالحسرة والانكسار إلا عندما استثنت!

تمت بحمد الله